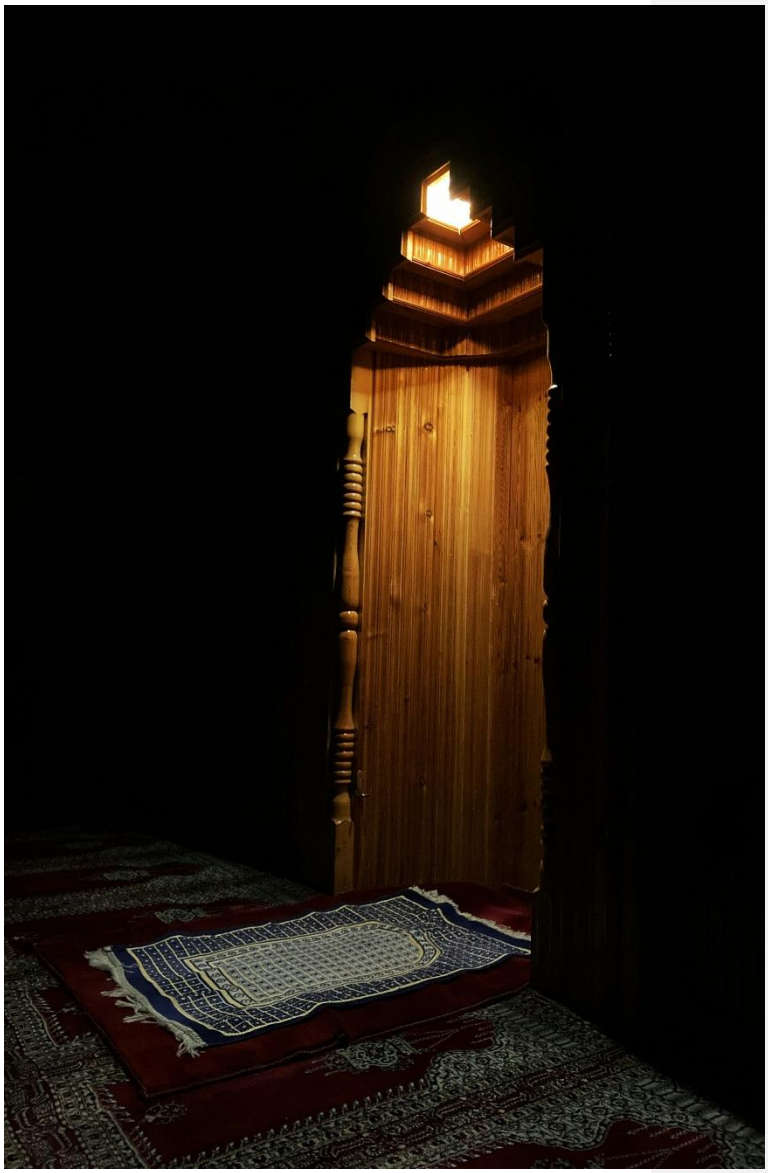

و للروح ارتواء

تفريغ محاضرة

قم الليل إلا قليلًا

رواء الاثنين | د.هند القحطاني

١٤٤٣/٨/١٨ هـ

قم الليل إلا قليلًا

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

كان أول ما نزل من القرآن الكريم على النبي عليه الصلاة والسلام آياتٌ من سورة المزمل، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨)﴾ (المزمل ١ - ٨)

هذه الآيات والتي في سورة المزمّل هي بداية الرسالة، ومعنى أن هذا الرجل أصبح رسولًا لله يعني أن معه منهجًا يقوم بدعوة الناس إليه، ومن هذا المنهج تتغير حياة النبي ثم العرب ثم العالم، ولا يزال يتغير إلى أن بلغ الآن أكثر من مليار وأربع مئة مليون مسلم على وجه الأرض والعدد في ازدياد.

لكي نفهم كيف نزل القرآن على النبي عليه الصلاة والسلام وكيف قام بعملية التغيير؟ ولماذا رمضان الذي نترقبه الآن نطمح فيه أيضًا إلى التغيير وتقويم اعوجاج أنفسنا، لابد أن نتعرف ونفصّل في العبادات التي تعمل في العبد هذا التغيير..

بالبداية كان أول ما نزل على النبي عليه الصلاة والسلام آيات من سورة العلق، ثم نزلت المدثر وحينها حصل الموقف مع نبي الله وخاف وتدثر عند زوجته خديجة، لأنه رأى حينها جبريل بصورته الأصلية له ستمائة ألف جناح كل جناح منها يملأ الأفق، ثم نزلت على رسول الله آيات من سورة المزمل ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢)﴾.

نريد أن نقف عند هذه الآية (قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢)).

ولاحظوا أن هذا الأمر كان هو بداية التكاليف، فأمره بقيام الليل، ولم يقل له مثلًا انظر في ملكوت السموات والأرض، أو تفكر في المخلوقات، بل نزلت هذه الآية مباشرة وبصيغة الأمر والوجوب، وحينها لما نزل هذا الأمر قام الليل مع النبي عليه الصلاة والسلام صحابته ولم تكن فرضت الصلاة بعد، وجلسوا على هذا الحال سنة كاملة كما تقول عائشة رضي الله عنها حين سئلت"...أَنْبِئِينِي عَنْ قِيَامِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: «أَلَسْتَ تَقْرَأُ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ؟» قُلْتُ: بَلَى، قَالَتْ: «فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَقَامَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ حَوْلًا، وَأَمْسَكَ اللهُ خَاتِمَتَهَا اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا فِي السَّمَاءِ، حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ التَّخْفِيفَ، فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ فَرِيضَةٍ» [أخرجه مسلم في صحيحه]

يقول تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَآخَرُونَ

يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٠)﴾ (سورة المزمل)

حديثنا اليوم عن قيام الليل ليس حديثًا ترفيًا ولا ثانويًا، وليس حديثًا يختص به المشايخ والملتزمين، نحن نريد أن يكون لكل واحدة منا له نصيب من قيام الليل، فلا تخرجي نفسك من القائمة، ولا تظني أن الكلام الذي سنقوله اليوم لست معنية فيه أبدًا.

حديثنا اليوم عن قيام الليل الذي هو علاج لكل من يريد أن يقترب من ربه ولكل من يريد أن تستقيم خطواته إلى الله عز وجل ولكل من يريد أن يحيا حياة آمنة مطمئنة فيها السكينة، إذا كنت تفتقد هذه الأمور فأنت جزمًا تحتاج إلى قيام الليل في حياتك،

فتعالي معنا نبدأ في هذا اللقاء بهذه الآيات، قال الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)﴾ (سورة المزمل).

الآن لماذا خلد الله عز وجل هذه الحادثة بذاتها عندما تزمل النبي عليه الصلاة والسلام بلحافه؟ هل كلمة المزمل فيها ثناء؟ الجواب لا، هي ليست ثناء كما لو دعا نبيّه بـ يا أيها النبي! خلّدها الله سبحانه لنتعلم نحن الدرس من بعده، فحينما تتزمل لأنك خائف، وعندما تحاول الهرب لأي مكان خوفًا من أي شيء، من كلام الناس أو من المجتمع وتتمنى لو أنك تنعزل عن الجميع، فاعلم أيها الخائف أنه لا أمن ولا دفء ولا سكينة إلا في ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢)﴾ (سورة المزمل).

هذا الكلام يخصّك أنت الآن ولا أحد أحوج به منّا، تذكر خطوة تودّ أن تتخذها تقدّم لها رجلًا وتؤخر الأخرى، خوفًا وترددًا، وهناك رجفة في دخلك، اعلم أنه لا يعالج هذا الشعور إلا قيام الليل، ولذلك كان هذا الأمر الإلهي لخير البشر في الوقت الذي يحتاج إليه.

قال الله عز وجل ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣)﴾ (سورة المزمل) فما معنى نصفه أو انقص؟ يعني أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقوم في أول أمر التكليف ما بين أربع إلى ست ساعات!

ونحن كم الوقت الذي كنا نصلي فيه تراويح العام الماضي؟ ساعة أو نص ساعة؟ وهناك من الناس كان يفوتها كسلًا وتهاونًا! والذي يصليها يشعر بعدها كأنه فعل شيء عظيم على ساعة من اليوم! بينما كان النبي عليه الصلاة والسلام وصحابته يقومون ما بين أربع إلى ست ساعات.

اليوم نريد أن نتناول قيام الليل على أنه وصفة علاجية عاجلة نحتاجها لكي نرمم فيها أنفسنا، ولكي تعرف قيمة قيام الليل بالذات في الدين دعنا ننظر له على أنه مثل الجهاز التنفسي، أو جهاز إنعاش، فالإنسان عندما يشعر بضيق التنفس أو يكون هو يعاني أصلا من عدم القدرة على التنفس، فإنه يحتاج إلى جهاز تنفس ليستطيع إدخال الاكسجين والحياة إلى داخلك،

فقيام الليل بهذه الأهمية. ولذلك الذي ليس لديه إلى الآن نصيب من قيام الليل نريد أن نخبره أنك أنت لم تعش بعد، أنت لا تزال تعيش الدنيا من بعيد، أنت لا تزال لم تقم بأمر الله الذي يريده منك، والذي أوصى به النبي عليه

الصلاة والسلام الصحابة عليه، وفي الحديث أن أَبَا هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الجَنَّةُ» [أخرجه الترمذي في سننه وقال الألباني : صحيح]

لقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يمشي في الليل قبل السحر في الناس يذكرهم ويحثهم على قيام الليل، ولو لم يكن هذا الشيء مهمًا وأن الأمة ستحتاج إلى قيام الليل لتثبت أقدامها ما قام النبي -عليه الصلاة والسلام- وتفقد أصحابه في ذلك،

كان يمر على بيوتهم، فيسمع قراءة أبي بكر ويمر على عمر فيسمع قراءته فوجد أن أبا بكر -رضي الله عنه- يخفض الصوت بالقراءة و وجد عمر يقرأ بصوت جهوري فقال النبي -عليه الصلاة والسلام- لهما في الصباح: «يَا أَبَا بَكْرٍ ارْفَعْ مِنْ صَوْتِكَ شَيْئًا»، وَقَالَ لِعُمَرَ: «اخْفِضْ مِنْ صَوْتِكَ شَيْئًا» [أخرجه أبو داود في سننه وقال الألباني : صحيح] ثم يقول لأبي موسى الأشعري في حادثة أخرى: «لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ... » [أخرجه مسلم في صحيحه]

وكان أبو موسى الأشعري -رضي الله عنه- ندي الصوت، فقال يا رسول الله لو كنت أعلم أنك تسمع لحبرته لك تحبيرًا، يعني لجوّدت قراءتي أكثر،

ومن المواقف كذلك أنه مرةً أتى بيت ابنته فاطمة وزوجها علي يتفقدهم، فَقَالَ: «أَلَا تُصَلِّيَانِ؟» ... "[أخرجه البخاري في صحيحه] فلم يكن موضوع قيام الليل عاديًا ، أو أنه سنة من شاء أن يصليها أو لا، بل كانت سنة مؤكدة وتخفيفًا على الأمة لوجود الضعفاء خففت في آخر آية من المزمل،

وأما النبي -عليه الصلاة والسلام- لما سمع هذا الأمر "قم الليل" ماذا فعل؟ تقول عائشة -رضي الله عنها- كان النبي -عليه الصلاة والسلام- يقوم الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك الله -عز وجل- ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال كلمته المشهورة: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا» [أخرجه البخاري في صحيحه]

إذا فالنبي -عليه الصلاة والسلام- كان يقوم حتى تتفطر قدماه، يعني قيامه ليس القيام العادي مثل قيامنا الذي نعرفه، بل كان يقوم بالبقرة وآل عمران والنساء، هذه ستة أجزاء كان يقوم بها في ركعة، وكان يصلي القيام ١١ ركعة! فاحسبوا وتخيلوا كيف هو قيامه،

وكان أصحابه يصفون صلاته بأن ركوعه مثل قيامه وسجوده مثل ركوعه، فكان قيام الليل عند النبي -عليه الصلاة والسلام- جزء من الليل مهم جدًا لا يفرط فيه، وكان إذا فاته حزبه لأي سبب لمرض أو تعب كما تقول عائشة فإنه يقضي هذا الحزب في النهار ما بين الضحى والظهر، لم يكن يعتبرها أمرًا فائتًا و انتهى وقته، ولم يكن يتعذر لنفسه يقول نمت وإن شاء الله هذه صدقة تصدق الله -عز وجل- بها علي الحمد لله كتب الأجر وانتهى .. هو يكتب الأجر صحيح لمن كان له ديمومة على العمل، لكن النبي -عليه الصلاة والسلام- كان يقضيها ولا يفرط فيها.

يقول حذيفة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ البقرة وآل عمران والنساء قراءة متأنية مترسلة فإذا مر بآية عذاب استعاذ بالله عز وجل، وإذا مر بآيات الجنة والوعد سأل الله -عز وجل- ذلك، فتخيلوا هذه السور الطوال كان يقرؤها بتأني ليس عجلة ولا حدرًا !

يقول عبد الله بن سلام في الحديث: سمعت النبي -عليه الصلاة والسلام- يقول في طرقات المدينة: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ» [أخرجه ابن ماجه في سننه وقال الألباني صحيح]

لاحظوا أنها جميعها أشياء بسيطة، والأجر عليها عظيم "تدخلوا الجنة بسلام"، وهذا الحديث جاء في رواية أخرى بدايتها بداية جميلة حينما قال النبي -عليه الصلاة والسلام-: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا» قَالَ أَبُو مَالِكٍ الْأَشْعَرِيُّ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ ..... [أخرجه الحاكم في المستدرك : وقال حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه]

والناس في المدينة لم يكونوا يتخيلون كيف هو شكل هذه البيوت؟ كيف تكون شفافة؟ نحن الآن إذا قرأنا هذه الأحاديث نتخيل بيوت الزجاج، ولكنها هي شيء مما لا يخطر على قلب بشر، وهذا النعيم يكون جزاءً لمن فعل أشياء بسيطة (لمن أطعم الطعام وأطاب الكلام وصلى بالليل والناس نيام).

إذًا ليكن لك حبلٌ موصول بالله، وإذا كنت تشعرين أن المسافة بعيدة، فالذي نقوله لك أنها خطوات والإنسان يربي نفسه، لا تظنين أنها خطوة واحدة يفعلها الإنسان فيكون في منزلة قريبة، بل بالتدرج يصل للمنزلة.

والصحابة رضوان الله عليهم كانوا دائمًا ما يسألون رسول الله عن الأعمال، فسألوه: (أي الصلاة أفضل؟) فقال النبي -عليه الصلاة والسلام-: (طول القنوت) يعني تصلي صلاة طويلة، ليست ركعات تنقرها وانتهينا، لكن الإنسان يبدأ يعوّد نفسه ويتدرج بها من ركعة طويلة إلى ثلاث إلى سبع إلى إحدى عشر كما كان يفعل النبي عليه الصلاة والسلام،

فلا يكن هدفك قبل النوم أنك تصلي ثلاث ركعات فقط، بل اجعل هدفك أن تصلي ركعات متأنية، فالله عز وجل يحب طول القنوت من عباده، لماذا؟ لأن فيه تطويل بقراءة القرآن، وهذا يجعل العبد يستغرق وقت أكبر في التفكر في الآيات، فأن تعرض نفسك على الآيات بشكل أكبر هذا مدعاة لإعادة تشكيلك بالقرآن، لجعلك تتخلقين بها، والقراءة في الليل لها تأثير أعظم في النفس، كما في تأثير السُّقيا على النبات فإنه لما يُسقى في الليل يتشرب الماء أكثر، وهكذا النفس إذا قرأت القرآن في وقت السكون سيكون أخذها منه أكثر، ولذلك قال الله -عز وجل-: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾.

والنبي-عليه الصلاة والسلام- كما أنه كان يقوم الليل بالسور الطوال، فكذلك كان يقوم أحيانًا الليل بآية واحدة فقط، تقول عائشة رضي الله عنها: «قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِآيَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ يُرَدِّدُهَا» [أخرجه ابن ماجه في سننه وقال الألباني حسن] وما هي الآية بأبي وأمي يا رسول الله؟ كانت: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُم فَإِنَّهُم عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُم فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾

هذه الآية التي استمرّ ليلته حتى أصبح يرددها، شفقة ورحمة بأمته، وهو عليه الصلاة والسلام يعلم أن الله جل جلاله عالمٌ بعباده لن يعاقب عباده ولن يعذبهم إلا بما يستحقون.

وكذلك كان فعل عائشة -رضي الله عنها- حينما قامت بآية (فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ) ليس في قيام الليل بل كان في صلاة الضحى، كما يحكي عنها ابن الزبير فيقول: (فجلست أنتظرها -يريد السلام عليها- فإذا هي تردد هذه الآية (فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ) يقول فلما أطالت ذهبت إلى السوق، ذهب ماشيًا وقضى حاجته، فلمّا رجع فإذا هي على الحالة التي تركها عليها (حديث موقوف).

تتوقعون كم جلست عائشة -رضي الله عنها- تقرأ بهذه الآية؟ ساعة ساعتين وهي تردد هذه الآية؟

أحد الصحابة أيضًا كان كلما صلى بالناس إمامًا قرأ: ﴿قُل هُوَ اللَّهُ أَحَد * اللَّهُ الصَّمَد * الَّذِي لَم يَلِد وَلَم يُولَد * وَلَم يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَد﴾ فالمأمومون شكوه إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- لأنه لا يقرأ إلا سورة الصمد، فسأله النبي -عليه الصلاة والسلام- لِمَ تقرأ هذه السورة؟ قال: لأنها صفة الرحمن وأنا أحبها فنزل الوحي من فوق سبع سماوات يقول: أخبره أن الله يحبه لحبه إياها، فلأنه يحب صفة الرحمن فأحبه الله -عز وجل- على ذلك.

والله -عز وجل- عندما قال: ﴿قُمِ اللَّيلَ إلا قَلِيلًا﴾ أتى ما بعدها من الآيات تشرح لماذا هذا الفعل مهم، قال: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيكَ قَولًا ثَقِيلًا﴾ فالله -عز وجل- سمى القرآن ثقيلًا لأن فيه تكاليف وتشاريع، فسورة البقرة فيها خمسمائة حكم لوحدها، والقرآن ثقيل لأنه رسالة الله الخالدة إلى قيام الساعة ومعنى هذا أن القرآن فيه علاج هؤلاء البشر الذين يبحثون عن السعادة عن الآمان عن الطمأنينة،

هذه الأمور ليست موجودة فقط في دورات تطوير الذات، في دورات كيف تعيش حياتك وكيف ترفه عن نفسك؟ بل إن وصفة الإنسان العلاجية موجودة في هذا الكتاب ولذلك يجب أن نفهمه.

قال تعالى:﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾. (المزمل:٥).

أي إن هذا القرآن ثقيل فالتكاليف ثقيلة لن تستطيع القيام بها من غير مدد من الله ومن غير عون من الله عز وجل ولذلك أنت تحتاج إلى قيام الليل.

قال تعالى:﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾. (المزمل:٦).

فإذا أردنا هذه الهداية وأن الله عز وجل يهدينا إلى هذا الصراط المستقيم وأن الله عز وجل يفتح علينا في قلوبنا فلا بد أن يكون لنا نصيب من هذه العبادة.

يقول عبد الله بن عمر -رضي الله عنه-إن أول ما يُنقص في العبادة في أمة محمد صلى الله عليه وسلم :التهجد بالليل ورفع الصوت فيها بالقراءة. فهذه الصلاة هي شعار أمة محمد صلى الله عليه وسلم. ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام حاكيًا عن الأجر الذي يكون لك حينما تقوم الليل: «صلاة الرجل تطوعًا حيث لا يراه الناس تعدل صلاته على أعين الناس خمسًا وعشرين درجة» (صححه الألباني)

فقيام الليل قد تكون الصلاة الوحيدة التي يصليها الإنسان لوحده بمعزل عن العيون فلا يراه أحد، هذه الصلاة الخفيّة تعدل صلاة الإنسان العادية بأكثر من خمس وعشرين درجة، يعني كل مرة أنتِ تصلين في الليل أنتِ ترتفعين درجات بالجنة.

قال تعالى:﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾. (الإسراء:٧٩).

المقام المحمود ما هو؟ هو الشفاعة الكبرى التي يذهب فيها الناس إلى الأنبياء فيقولون نفسي نفسي اللهم سلم سلم إلا نبينا الوحيد الذي يذهب إليه الناس فيقول أنا لها، ولهذا اليوم ولهذه اللحظة خبأ عليه الصلاة والسلام دعوة فيسجد عند العرش ويحمد الله عز وجل بمحامد لم يعرف بمثلها. فالمقام المحمود هذا الذي توصل له النبي عليه الصلاة والسلام أرشده الله عز وجل إليه من خلال ماذا؟ قال تعالى: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾. (الإسراء:٧٩).

وماذا لأمته؟ جعل الله سبحانه لعباده الصالحين جنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وجعلها منازل، ومنها الفردوس الأعلى الذي تتفجر منه أنهار الجنة، ولكِ أن تتخيلي أجمل مناظر الدنيا

وأبهى الإطلالات والفنادق على الشلالات المنحدرة، هذا كله الذي في الدنيا لا يساوي عند الله جناح بعوضة، ولو كان له قيمة ما سقى كافر منها شربة ماء،

وأما المنازل التي أعدها الله عز وجل لمن آمن به ولمن آثر الله عز وجل على هواه وهوى نفسه، فهي كما جاءت في الحديث القدسي: "قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ "، قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: " {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} [السجدة: ١٧] الْآيَةَ

وهذه الآية جاءت بعد أي آية؟ قال تعالى:﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.(السجدة:١٦/١٧).

فربُّ العزة والجلال يعدُ عباده الصالحين بأن عيونهم ستقرّ وتسعد عندما يدخلون الجنة ويرون فيها هذا النعيم العظيم، لأنهم اقتصوا ساعة أو نصف ساعة من الليل ليكون لهم فيها نصيب من القيام، فإذا كان للنبي عليه الصلاة والسلام المقام المحمود جزاءً وثوابًا لقيام الليل، فلأمته بعده سيكون لهم الدرجات العُلا.

يقول الإمام الأصفهاني-رحمه الله- في تفسيره: قال تعالى:" وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ". (الإسراء:٧٩). قال: ومن الليل فتيقظ به.

وليس هي اليقظة التي هي ضد النوم، بل اليقظة أيضًا التي هي ضد الغفلة، فأنت توقظ نفسك من غفلتها كذلك.

ويقول النبي عليه الصلاة والسلام أيضا مشوقا إلى هذا القيام: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ العَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الآخِرِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ» [أخرجه الترمذي في سننه وقال الألباني : صحيح]

فالعبادة الوحيدة التي يتنزل الله عز وجل من عرشه لها هي قيام الليل، ويخبرنا النبي عليه الصلاة والسلام عن الله عز وجل أنه ينزل في ثلث الليل الآخر ويسأل: « إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ، أَوْ ثُلُثَاهُ، يَنْزِلُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرَ لَهُ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ » [أخرجه مسلم في صحيحه]

هؤلاء الذين يشتكون دومًا لأنهم غير قادرين على التوبة، ويتمنون أن يكونوا أفضل وأحسن، أين هم من هذا الحديث؟ هنا الله يدعوك للتوبة والاستغفار ليغفر لك، وإذا شعرت بأنك قصرت أو أذنبت أو تماديت فهذا الوقت هو وقت الاستغفار.

وأين من لديه حاجة تعسّرت عليه؟ سنوات وهو يدور وراءها ويرجو تحصيلها، هذا الوقت الذي يقول الله لك فيه اسألني وأعطيك.

ولو أردتِ أن تدخلي الجنة من غير حساب ولا عذاب، وعندما نقول من غير حساب ولا عذاب، لابد أن نتصور أولًا ما شكل الحساب الذي ينتظر الناس يوم القيامة؟

يقول تعالى في سورة الكهف:﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ﴾. (الكهف:٤٩).

نفهم من هذه الآية أن أعمال الإنسان في حياته سيُقلبها ككتاب فيه صفحات ملآى بالأعمال، كما قال تعالى:﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾. (الإسراء:١٤).

وفي الآية التي بعدها يتضح المعنى أكثر، قال تعالى:﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾. (الكهف:٤٩).

فهذا الكتاب سيصور لك الأعمال كما لو أنها حاضرة الآن، كأنك ترينها بالصوت والصورة، هي ليست مكتوبة في سطور كقصة حياة فقط، بل ترينها كأنها شريط مسجل، أمّا الكيفيّة فالله بها أعلم!

لنتأمل حالنا كيف سيكون حينما تعرض علينا أعمالنا؟ كيف سيكون الشعور بالخزي والندم جرّاء لحظة ذنب ارتكبتيها، أو حرام انتهكتيه، جرّاء صلاة صليتها بجسدك وروحك سارحة في عالم آخر، الصلاة التي أدتيها وأنت تفكرين لأي مقهى ستذهبين بعد الصلاة ، تخيلي أنك ستجدين هذا كله مسجل﴿وَوَجَدوا ما عَمِلوا حاضِرًا﴾ (الكهف: ٤٩)

في رسالة تداولت جاء فيها حساب بسيط حول الغيبة كانت تقول لو أنك كل يوم اغتبت أربع أشخاص على مدار ستين سنة فإنك ستأتي يوم القيامة وعليك حق لسبعة وثمانين ألف وست مئة شخص، لو قارنا هذا العدد بأعداد ملاعب كرة القدم التي تسع بالعادة ستين ألف، فهذا الرقم يفوقه بكثير، هؤلاء الناس كلهم يوم القيامة يأتون يريدون حقهم منك!

﴿وَوَجَدوا ما عَمِلوا حاضِرًا وَلا يَظلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (الكهف: ٤٩) هذا على ذنب واحد فقط وضربنا مثالًا عليه بالغيبة، ناهيك عن بقية الذنوب التي نفعلها في اليوم والليلة من الهمزات واللمزات والنظرات، تخيلي لو أن عينك وقعت على أربع نظرات حرام؟ أو أربعة مشاهد من التعري، واحسبي كم عورة نشاهدها فقط خلال دقائق في السناب شات على سبيل المثال..

فالحساب سيكون ثقيلا يوم القيامة، ليس سهلًا أمره، وما حذرنا القرآن من ذلك اليوم عبثًا ﴿نَبِّئ عِبادي أَنّي أَنَا الغَفورُ الرَّحيمُ ۝ وَأَنَّ عَذابي هُوَ العَذابُ الأَليمُ﴾ (الحجر: ٤٩-٥٠)

فلا مجال لأن نأتي يوم القيامة ونقول يارب ما كنا ندري أن الموضوع كان بهذه الجدية، ما كنا ندري أن ذنوبنا كثيرة وحسابنا عليها حقيقي ودقيق، ومن يريد منا أن ينأى بنفسه عن هذا كله، فليستمع لهذا الحديث: يقول النبي عليه الصلاة والسلام؛ «ثلاثة يحبهم الله وثلاثة يشنؤهم الله: الرجل يلقى العدو في فئة فينصب لهم نحره حتى يقتل أو يفتح لأصحابه، والقوم يسافرون فيطول سراهم حتى يحبوا أن يمسوا الأرض فينزلون فيتنحى أحدهم فيصلي حتى يوقظهم لرحيلهم، والرجل يكون له الجار يؤذيه جاره فيصبر على أذاه ...» [أخرجه أحمد في مسنده وقال الألباني : صحيح]

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: " «ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللَّهُ وَيَضْحَكُ إِلَيْهِمْ وَيَسْتَبْشِرُ بِهِمْ: الَّذِي إِذَا انْكَشَفَتْ فِئَةٌ قَاتَلَ وَرَاءَهَا بِنَفْسِهِ لِلَّهِ تَعَالَى فَإِمَّا أَنْ يُقْتَلَ وَإِمَّا أَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ وَيَكْفِيَهُ، فَيَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا كَيْفَ صَبَرَ لِي بِنَفْسِهِ!؟ وَالَّذِي لَهُ امْرَأَةٌ حَسَنَةٌ وَفِرَاشٌ لَيِّنٌ حَسَنٌ فَيَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ يَذَرُ شَهْوَتَهُ وَيَذْكُرُنِي وَلَوْ شَاءَ رَقَدَ، وَالَّذِي إِذَا كَانَ فِي سَفَرٍ وَكَانَ مَعَهُ رَكْبٌ فَسَهِرُوا ثُمَّ هَجَعُوا فَقَامَ مِنَ السَّحَرِ فِي ضَرَّاءَ سِرًّا» "[رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الثقات].

وفي الحديث أيضًا: ..."وَإِذَا ضَحِكَ رَبُّكَ إِلَى عَبْدٍ فِي الدُّنْيَا فَلَا حِسَابَ عَلَيْهِ " [أخرجه أحمد في مسنده وقال شعيب الأرنؤوط حديث قوي]

هذه أحاديث حري بالمؤمن أن يعلمها ليعرف المواطن التي يضحك الربّ فيها لعبده ويستبشر به، يقول النبي عليه الصلاة والسلام: ثلاثة يحبهم الله ويضحك إليهم ويستبشر بهم، من هم هؤلاء؟ الذي إذا انكشفت فئة قاتل وراءها بنفسه لله عز وجل فإما أن يُقتل وإما أن ينصره الله ويكفيه. وهذا موطنٌ واضح فهو موطن قوة

وشجاعة، يعني يحكي عن ناس في حرب وانكشفت الصفوف، كل الناس هربوا في لحظة انهزام فلم يبقَ إلا هو لوحده يقاتل، هل تخيلتم الشجاعة والبطولة؟ أن تكون أنت بصدرك لوحدك تواجه الجيش العرمرم كله أمامك؟ هذا الرجل يضحك الله عز وجل إليه من صنيعه ويقول انظروا إلى عبدي هذا كيف صبر لي بنفسه! والضحك هنا بمعنى الإعجاب، يعني أن يعجب الله عز وجل بصنيعه فيضحك الله عز وجل إليه هذا فلا حساب عليه.

وأما الثاني .. فيقول الله عز وجل عنه أنه رجل له امرأة حسناء وفراش لين حسن فيقوم من الليل، فيقول الله عز وجل فيذر شهوته ويذكرني ولو شاء رقد، هذا الرجل الآن الذي يترك شهوته، ليس شهوة النوم فقط التي كلنا نجاهد عندما نهمُّ بترك السرير، بل إلى جانب ذلك داعي الهوى يجاهده. فامرأته بجانبه ومع ذلك ترك هذا كله وقام لله عز وجل يتعبد، فتذكري هذا الحديث دائمًا لما تريدين القيام من الفراش الدافئ وقطع النوم اللذيذ ومجاهدة النعاس لأنك تعلمين أن الله يحب هذا منك، ولأنك تريدين ألا تفوتي الوقت الثمين والأسئلة الربانية في جوف الليل: هل من مستغفر؟ هل من تائب؟ يكون هذا وقت توزيع العطايا ولا تكونين من ضمن الحضور؟!

وهل إذا فعلتِ هذا فأنت عليه مجبرة؟ أم لأنك تتلمسين مرضاة الله؟ وهنا نقول أبشري فإن من أحسن في ليله كوفئ في نهاره، فإذا استيقظتِ الصباح ييسر لك الله الصالحات وتجدين نفسك مواتية لك على الخير لأنك لا تريدي إفساد الليلة التي قمت فيها لأجل الله.

وأما الثالث الذي كان في سفر وكان معه ركب فسهروا ثم هجعوا فقام من السحر في ضراء أو سراء، وهنا يتبين لنا أن الاثنين من الثلاثة الذين يضحك الله إليهم كلاهما اشتركوا في قيام الليل، فهذا الرجل الأخير قد أنهكه والركب الذين معه السفر وأصابهم التعب، ولكن هو بينهم لم يستطع أن يترك ما اعتاده من قيام الليل حتى ولو أصابه التعب،

وانظري لحالنا نحن في الأسفار مع أننا أصبحنا نسافر بالوسائل السهلة ومع ذلك إذا غلبنا التعب أعطينا لأنفسنا كل الرخص، وقيسي على ذلك أيضًا ليالي المناسبات والأفراح من يتذكر فيها ويجاهد إرهاقه فيصلي الليل؟

ولذلك أبو ذر رضي الله عنه كان يقول لأصحابه: "أليس إذا أراد أحدكم سفرًا يستعد له؟ قالوا نعم. قال فسفر الآخرة أبعد مما تسافرون". يعني كم أطول رحلة؟ ١٨ ساعة مثلًا لأمريكا أو الصين؟ أما سفر الآخرة فهو أبعد.

فقال له أصحابه: فدلنا على الطريق، فقال: "صلوا ركعتين في ظلمة الليل لوحشة القبور وصوموا يومًا شديدًا حره لطول يوم النشور".

ومما يحضرني من المواقف في الحج أنه كانت معنا مدرسة قرآن من مصر وكانت تمر بنا كثير من الأيام المتعبة خصوصًا (عرفة - مزدلفة) فكنا إذا رجعنا لمقر الحملة لا نملك أنفسنا من الإرهاق ونام، وكانت هي قبل الفجر بساعة توقظ النائمات وتردد (قوموا صلّوا بالليل .. حتناموا كتير في القبور) فكانت دائمًا تردد هذه الكلمة، فتخيلي أن شخصاً ما يوقظك ليلاً بهذه الكلمة .. مرعبة ولكنها من الكلمات التي تظل مغروسة في القلب .. صدقاً سننام كثيراً في القبور، فاعمل لذلك اليوم فهذه الأيام محدودة ومعدودة .

يقول النبي ﷺ عن قيام الليل "....واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل وعزه استغناؤه عن الناس» [أخرجه الحاكم في مستدركه]

وقال الألباني : حسن] شرفه أي أن مرتبته تكون عليّة ليس بمراتب بالدنيا، ولننظر لمن حصل على شهادة الماجستير أو الدكتوراة كيف يرى نفسه ؟! يظن حرف الدال بجانب اسمه كأنه ملك الدنيا، هذه مقامات دنيوية زائلة، أما المقام الأخروي فهو منزلتك عند الله.

يحدثنا ابن عمر رضي الله عنه عن رؤيا رآها، رأى وكأن القيامة قامت وكأن هناك ملكين يدفعون به إلى النار فكانت مثل البئر المطوي وإذا لها قرنان وإذا فيها أناس قد عرفتهم فجعلت أقول (أعوذ بالله من النار أعوذ بالله من النار) وكان شاباً حينئذ لم يبلغ العشرين، فجاءه ملك وقال (لن ترع لن ترع) أي ليس عليك خوف .. فاستيقظ من النوم وقص الرؤيا على حفصة أخته وزوجة النبي ﷺ .. فقصت هي الرؤيا على النبي عليه الصلاة والسلام فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ» فكان عبدالله لا ينام من الليل إلا قليلاً.فما ترك الوصية رضي الله عنه إلى أن أصبح شيخاً كبيراً، فظلّ مستمسكًا بوصية النبي ﷺ، واستنتج العلماء من هذا الحديث أن قيام الليل منجي من عذاب النار لأن النبي أوصاه بذلك.

وقال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) ﴾ (سورة الذاريات)، فأينما ذكرت صفات عباد الله ستكون الصفات الأولى هي قيام الليل

وقال عز وجل: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا(٦٣)﴾ (سورة الفرقان)

فكانت أول صفة في قول الله عز وجل ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وقياماً (٦٤)﴾ (سورة الفرقان)

قال الفضيل ابن عياض: من أخلاق الأنبياء الأصفياء الأخيار الطاهرة قلوبهم خلائق ثلاثة: الحلم والإنابة وقيام الليل.

الحلم أي أنه لا يغضب بسرعة، والإنابة أي رجّاعين إلى الله، ولهم حظ من قيام الليل.

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، قَالَتْ: اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الفِتْنَةِ، مَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الخَزَائِنِ، مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الحُجَرَاتِ، كَمْ مِنْ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ يَوْمَ القِيَامَةِ» قَالَ الزُّهْرِيُّ: «وَكَانَتْ هِنْدٌ لَهَا أَزْرَارٌ فِي كُمَّيْهَا بَيْنَ أَصَابِعِهَا» [أخرجه البخاري في صحيحه]

فهذه ليلة قام بها النبي عليه الصلاة والسلام فزعًا من نومه، وقام يوقظ زوجاته ويقول: ماذا أنزل الليلة من الخزائن !! ماذا أنزل الليلة من الفتن !!

ولذلك قال النبي ﷺ: «عليكُم بقيامِ الليلِ فإنه دأْبُ الصالحينَ قبلكُم» [أخرجه الترمذي في سننه ، وقال الألباني : حسن].

نحن محتاجون لقيام الليل حاجة حقيقية فهو بمثابة جهاز إنعاش لنا، وهو ما يكفر سيئاتنا وينهانا عن الإثم والعصيان، ثم قيام الليل يثبط رغبتك في اقتراف الذنوب، حتى ما كنت متعلقة فيه سواءً مسلسل أو أغاني أو غيرها مع قيام الليل ستجدين نفسك لا ترغبين بالازدياد منها، لأن الله أعانك على نفسك بقيامك لما وجده منك من صدق ورغبة فيما عنده.

ونختم درسنا بسؤال: كيف أدخل قيام الليل في جدولي اليومي؟

نعود لسورة المزمل لقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ٧﴾-(سورة المزمل)، فشغلك ومواعيدك وكل أعمالك التي ترغبين بإنجازها اجعليها في النهار وانتهي منها، وأما الليل خصوصًا بعد العشاء فليكن وقت العبادة الخاص بك، الوقت الذي تجاهدين به كل شيء حولك ليكون بينك وبين ربك، الوقت الذي ترممين به نفسك، ويكون لله تعالى فقط، وهذه الخطوة الأولى.

الخطوة الثانية أن تسألي الله عز وجل التوفيق، فلا يمكن أن نخطو خطوة دون استعانة وتوكل ،ونستدل بحديث معاذ رضي الله عنه لما قال له الرسول عليه السلام: (فلا تدعن دبر كل صلاة أن تقول اللهم أعني على ذكر وشكرك وحسن عبادتك)

فلا تظني أن القرار وحده يعينك! بل يجب أن تقرري وفوق القرار يجب أن تستعيني بالله، قد تكوني اتخذتِ قرار القيام ووقتّتِ المنبه، ولكن لا تُعانين على القيام، قد يكون ما زالت هناك قيود تكبّلك، لذلك من السنن أن تصلي ركعتين قبل النوم وفي هذه الركعتين سلي الله أن يمن عليك بقيام الليل وأن يجعلك من أهله ولا يجعلك من المحرومين، لا يمكن أن يلجأ الإنسان إلى الله ثم يبعده فهذه تنافي صفة الكرم، وهذا من سوء الظن بالله.

الخطوة الثالثة: يجب أن تجاهد:

يقول تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ (السجدة، ١٦) يعني نازعوا أنفسهم وجاهدوا، وهذه المنازعة يحبها الله عز وجل، وهي من المواطن التي يضحك الله فيها للعبد، ويباهي الله بها للملائكة، أيضًا أن لا تنامي إلا على طهارة، وأيضًا قراءة أذكار النوم، وهذه كلها تعينك على الطاعة وألا يبات معك الشيطان.

ولو حصل واستيقظتِ في أي لحظة في الليل وقلت: لا إله إلا الله وحده لا شريك له وهو على كل شيء قدير، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول و لا قوة إلا بالله ثم دعوت بما شئت فهذا من مواطن الإجابة.

يقول ابن الجوزي رحمه الله: إذا أردت المنن والعطايا فاعلم إنما الصدقات للفقراء، يعني افتقر إلى الله يمنن الله عليك.

فقومي الليل بشعور المحتاج الفقير ليُغدق الله عليك بالعطايا أكثر. واستحضري أن هذا الذي تقومين به هو الأمر الأول الذي أُمر الرسول به حين قال الله تعالى له: (قُمِ) المزمل، آية ٢

قال رجل لإبراهيم بن أدهم: إني لا أقدر على قيام الليل فصف لي الدواء، قال: لا تعصه بالنهار وهو يقيمك بين يديه بالليل. هذه إجابة مختصرة: فقيامك بين يدي الله من شرف عظيم، والعاصي لا يستحق ذلك الشرف.

يقول سفيان الثوري: حُرمت قيام الليل ٥ أشهر بذنب أذنبته، فقيل له ما ذلك الذنب؟ قال رأيت رجلًا يبكي فقلت هذا مرائي. فقط هذا ذنبه! هذا الظن السيء بهذا الإنسان منعه من قيام الليل ٥ أشهر! إذن ماذا عن المجالس التي يأكلون فيها من لحوم وأعراض الناس ويمزقونهم!

أختم الدرس بذكّر بأهمية التدرج، أن يأخذ الإنسان نفسه بالتدرج، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ القَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ المُقَنْطِرِينَ» [أخرجه أبو داود في سننه وقال الألباني : صحيح]

هذه المراحل الثلاثة تترك لكل إنسان متسع، فجربي القيام بعشر آيات كسورة القارعة وسورة الزلزلة كلها عشر آيات، فممكن أن تبدئي بآيات قصيرة وثلاث ركعات، أو خمس ركعات، لا يلزم أن تبدئي بإحدى عشرة والتي هي سنة النبي عليه السلام، في البداية أهم شيء أن يكون لك نصيب من الليل، قال عليه السلام: «...وَإِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ » [أخرجه البخاري في صحيحه]

عن علقمة قال: سَأَلْتُ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ، قُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، كَيْفَ كَانَ عَمَلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هَلْ كَانَ يَخُصُّ شَيْئًا مِنَ الْأَيَّامِ؟ قَالَتْ: «لَا، كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً..." [أخرجه البخاري في صحيحه]

يعني كان مداومًا على عمله، فأنتِ لا تأخذك الحماسة في البداية ثم تتركين وتتوقفين لأنك تعبتِ، لا تبدئي إلا بشيء معقول ومنطقي، فالقيام بسورة الرحمن وفيها ٧٨ آية يكون لك أجر القانتين، والقيام بجزئي عم وتبارك وفيها ألف آية تكتبين من المقنطرين.

أسأل الله أن يجعل هذا الكلام حجة لنا لا حجة علينا، وأن يجعلنا من أهل القرآن أهل الله وخاصته، وأن يجعلنا ممن يقيمه بين يديه بالأسحار، وأسال الله أن لا يبلغنا رمضان إلا وهو راض عنا وأن يبلغنا بلاغ قبول وعتق وتوفيق، هذا والحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

تنويه: مادة المحاضرة جمعت من مصادر عدة وجميع المحاضرات في المدونة ليست كتابة حرفية لما ورد في المحاضرة؛ إنما تمت إعادة صياغتها لتُناسب القرّاء وبما لا يُخلُّ بروح المحاضرة ومعانيها